# قبر أبي العلاء المعري

للأستاذ صبحي الياسيني

كان يوم الجمعة في الثالث من ربيع الأول عام ٤٤٩ للهجرة ، حين حضرت أبي العلاء الوفاة ، وانطفأت تلك الجذوة المتقدة يوماً مشهوداً عند أهل المعرة ، إذ وفد إليها غير الفضلاء والعلماء والخلق الكثير ، أربعة وثمانون شاعراً ، وقفوا حين مواراته الرمس يرثون عبقريته الفذة وعلمه المضيّع

واليوم وقد انقضى ألف عام على مولده يعيد التاريخ نفسه فيقف مثل هذا العدد وأكثر منه من الشعراء والأدباء جاءوا من أقاصي البلاد على قبره ليستعيدوا ذكرى صاحب هذه الشعلة المتقدة التي مرت عليها القرون فما زادتها إلا وميضا واستعاراً .

والمعروف أن جثة المعري نقلت إلى ساحة لإحدى دور أهله ودفن بها ، وهي واقعة في الطرف الغربي من المعرة ، وقد كانت هذه الدار في عهده على ما يظهر من انقطاع آثار البناء ووجود القبور الأثرية بتاليها من الجهة الغربية ، واقعة في أقصى البلدة باتجاه الغرب ، وكانت قبور أهله وبني عشيرته وتلامذته قبل إنشاء الضريح الحالي تحيط به إحاطة السوار بالمعصم ، إلا أنه كما حجب اسمه أسماءهم وفضله فضلهم في حياته ، كالشمس إذا ظهرت غاب كل كوكب ؛ فكذلك حجب قبره قبورهم ، واضطر المهندسون الذين قاموا بتشييد الضريح إلى إزالة القبور الواقعة بجوار قبره ، وحفظت حجارتها وشواهدها في حديقة خلفية لضريح أبي العلاء .

---

للطاعن سبيل إلى عكس معانيها ، وقلبها وتحريفها عن وجوهها المقصودة وسبلها ، ألا ترى إلى كتاب الله العزيز المحتوى على المنع والتجويز الذي لا يقبل التبديل في شيء من صحفه ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كيف أحلى جماعة من أرباب باطل الأقاويل ، تأويله على غير وجوه التأويل ، فصرفوا تأويله إلى ما أرادوا ، فما أحسنوا في ذلك ولا أجادوا ، حتى أن جماعة من الكفار ، وأرباب الزال والعثار ، تمسكوا منه بآيات ، جعلوها دليلا على ما ذهبوا إليه من الضلالات ، فما ظنك بكلام رجل من البشر ، ليس بمعصوم إن زل أو عثر ، وقد تعمق في فصيح الكلام ، وأتى من اللغات بما لا يتيسر لغيره ولا يرام ، وأودعها في كلامه أحسن إبداع ، وأبرزها في النظم البديع والأسجاع ، إذا قصده بعض الحساد ، فحمل كلامه على غير المراد ، وقد وضع أبو العلاء كتاباً وسمه « زجر النابح » أبطل فيه طعن المزري عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح ، وإيمانه الصريح ، ووجه كلامه الفصيح ، ثم أتبع ذلك بكتاب وسمه « بمحر الزجر » بين فيه مواضع طعنوا بها عليه بيان الفجر ، فلم يمنعهم زجره ، ولا اتضح لهم عذره ، بل تحقق عندهم كفره ، واجترأوا على ذلك وداموا ، وعنفوا من انتصر له ولاموا ، وقعدوا في أسره وقاموا ، فلم يرعوا له حرمة ، ولا أكرموا علمه ، ولا راقبوا إلاًّ ولا ذمة ، حتى حكوا كفره بالأسانيد ، وشددوا في ذلك غاية التشديد ، وكفّره من جاء بعدهم بالتقليد

فابتدرت دونه مناضلاً ، وانتصبت عنه مجادلاً ، وانتدبت لمحاسنه ناقلاً ، وذكرت في هذا الكتاب :

نسبه ومولده ، وتحصيله للعلم وطلبه ، ودينه الصحيح ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوي وجده ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصده .

وسميته « كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري »

وبالله التوفيق والعصمة ، وإليه المرجع في كل وصمة ، وهو حسبي ونعم الوكيل » .

حرصت على نقل هذه المقدمة الطويلة المسجوعة بنصها ليستطيع القارئ تكوين فكرة عامة عن هذا الكتاب النفيس ويعرف روح مؤلفه فيه ، وأرجو أن أستطيع تلخيص فصوله التي عثر عليها في فرصة قريبة

بهاء الدين الأفغاني

يروى التاريخ أن أبا العلاء أوصى أن يكتب على قبره البيت التالى :

هـــذا جنـاه أبى علىّ وما جنيت على أحـــد

وهذا البيت ليس له وجود على قبره ذى الكتابة الكوفية المشجرة ، ولا يوجد على شاهد الضريح سوى الكلمات التالية : « هذا قبر أبى العلاء بن عبد الله بن سليمان » . وقد محا الزمان كلمات : « هـذا قبر أبى » ، وكتب على ظهر الشاهد : رحمة الله عليه . وقد وجد بجوار ضريحه حجر مستطيل الشكل بقياس ٥٠ × ٣٠ مسطر عليه هذان البيتان بخط ثلث حديث :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة

نفيسة صاغهـا الرحمن من نطف

عزّت فلم تعرف الأيام قيمتهـا

فردّها غيرة منـــه إلى الصدف

وقد علمت من ثقة فى المعرة أن هذا الحجر حديث ، جدد عام ١٩٠٣ بذيل آخر مكتوب بالخط الكوفى أتى عليه الزمان فجدده أهل الفضل .

وقد كان ضريح المعرى فى وضعه السابق على غير الاتجاه الصحيح ؛ فكان منحرفا انحرافا قليلا نحو الشمال الغربى ، وذلك على ما يظهر بسبب الزلازل أو انخفاض الأرض فعدّل الآن إلى الاتجاه الصحيح .

أما الضريح القديم فقد كان حالة قبيحة من الإهمال ذكرها مؤرخو المعرى حتى قام فى عام ١٩٠٣ المرحوم نورس باشا الحراكى ، وهو رئيس للمعرة فى ذلك العهد ، وبنى عند قبره غرفة يعلوها قبة وبجوارها مصلى جعل منه مدرسة للأولاد كان يقوم بالتدريس فيها شيخ أعمى دائماً كلما مات واحد قام آخر .

ولما فتح قبره منذ خمس سنوات لم ير فيه من آثاره إلا بقية ضئيلة كالرماد من فتات عظامه ، وقد صب الآن فوقها الأسمنت لتكون قاعدة قوية تحت حجارة القبر الثقيلة

وقد كان فى النية تحت حجارة جديدة لقبره لتقوم مقام الحجارة الأثرية القديمة وتتناسب مع شكل البناء الجديد ، إلا أنه صرف النظر أخيراً عن هذا العمل بعد القيام به ، وكان ذلك الأوفق والأنسب .

وكان أمر بناء الضريح تكتنفه الصعوبات لعوامل شتى منها تبدل الحكومات المتعاقبة على البلاد السورية فكان رغبة أبى العلاء التى أبداها فى ترك قبره وعدم الاحتفاء به إذ يقول :

لاتكرموا جسدى إذا ما حل بى

ريب المنون فلا فضيلة للجسد

أو يقول :

إن الترابيت أجداث مكررة

فجنب القوم سجناً فى الترابيت

تحققت بقوة خفية لا يمكن التغلب عليها

إلا أنه تقرر فى موازنة الحكومة السورية لعام ١٩٣١ مبلغ من المال كاف لبناء الضريح ولم ينفذ المشروع ، كما أنه تقرر ذلك أيضاً فى موازنات الأعوام التالية ـ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ ـ ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ، وأضافوا على ذلك فى عام ١٩٣٢ مشروعاً جديداً هو طبع طوابع بريدية موشحة باسم أبى العلاء يعود ريعها لإنشاء الضريح فنفقت الطوابع والقبر على ما هو عليه

وكانوا فى كل عام يرصدون مبلغاً لإنشاء الضريح ، ولا ينفذ العمل ، حتى جاء عام ١٩٣٩ ، إذ خصص ١٥٠٠٠ ليرة سورية فى موازنة الحكومة السورية ( فصل ٧ مادة ١ فقرة ٤ ) وتقرر البدء بالعمل ، وكان ذلك يوم الأحد فى ١٨ تشرين الثانى ٩٣٩ عيداً أهلياً عند سكان المعرة الذين احتفلوا بنفس الوقت احتفالاً شائقاً بإنشاء شركة كهربائية أهلية مساهمة ، وشركة مياه إذ

أنارت الكهرباء بلدتهم لأول مرة ، وجرت المياه النقية إلى قسم من دورهم

وكان المظنون أن الأمور أخيراً سوف تسير سيراً حسناً لولا أن اندلاع الحرب جعل مواد البناء من أسمنت وحديد مرتفعة الثمن ارتفاعاً فاحشاً . كذلك سارت اليد العاملة تطالب أجوراً فاحشة ، فاستنكف الملتزم عن البناء ، وقامت الحكومة بعد أخذ ورد بنقل الالتزام إلى رجل آخر مع وضع اعتمادات مالية إضافية تتصاعد حسب ارتفاع الأسعار ، وقد انتهى العمل في أوائل هذا العام

والضريح في وضعه الحالي عبارة عن قبة دار مزروعة بالرياحين يدخل إليها من أروقة محيطة بها من الغرب والشمال ، وفي صدر هذه الدار قبر أبي العلاء موضوع تحت إيوان جميل ، وخلف القبر مسجد يدخل إليه من بابين على طرفي القبر ، ومكتبة على جانب المسجد للغرب ، وخلف المسجد حديقة صغيرة محفوظ بها الحجارة الأثرية التي وجدت حول القبر

وقد سبق أن قامت بلدية معرة النعمان بشق وتخطيط شارع كبير من شرق البلدة إلى غربها بحيث جعلته يمر مباشرة أمام ضريحه ، وقد عبدته وجعلت الأرصفة على جانبيه حتى صار من الشوارع اللائقة بمدينة كبيرة ، واسمه شارع أبي العلاء ، كما خصصت البلدية قطعة أرض مناسبة في مدخل البلدة لإقامة نصب تذكاري فيها لأبي العلاء

وقام أهالي المعرة بنصيب طريف من هذا التمجيد ، فأسموا فندق أبي العلاء ومطعم أبي العلاء ، وهم يملأون القلل بالماء ليلة الجمعة ويضعونها طوال تلك الليلة بجوار قبره ليشربها في اليوم التالي من بلد ذهنه من صبيان المدارس اعتقاداً منهم أن الذهن يصفو من بلادته بهذا الماء ، وهم يقسمون بالمعري كما يقسمون بمقام النبي يوشع الموجود عندهم ويتعصبون له ، ولا شاعر عندهم أو فيلسوف سباق للمعري في شاعريته أو حكمته ، وهم أول من يسوق لك الدليل على ذلك من أشعاره وآثاره

إن بلدة معرة النعمان اعتزازاً منها بفضل أبي العلاء المعري عليها تدعو جميع الأدباء والفضلاء لزيارة قبره في المعرة يوم ٢٧ أيلول ١٩٤٤ احتفاء منها بمرور ألف عام انقضت على مولده .

صبحي الياسيني
قائمقام معرة النعمان


دار الكتب الاهلية

تشترك في إحياء العيد الألفي للفيلسوف أبي العلاء المعري

فتقدم لأول مرة

رسالة الهنـاء

لأبي العلاء المعري

جزءان في سفر واحد

شرح وتحقيق الأستاذ الكبير

كامل كيلاني

الذي حبب الأدب العالي إلى كل قارئ
كما حبب القراءة إلى كل ناشئ

الثمن ٣٥ قرشاً صاغاً ـ وللبريد ٦٣ مليما

يطلب من الناشر

دار الكتب الأهلية

بميدان الأوبرا ـ ت ٤٩٠٦١

وفي السودان من مكتبة كردفان بالأبيض

وفي العراق من مكتبة الزوراء بسوق السراي ببغداد